النصّ القرآنيّ والوعي اللغوي
Qur'an text and linguistic awareness

أ.د رحيم جبر أحمد الحسناوي
جامعة بابل / كلية التربية

Ph. D. Raheem J. Ahmed

ملخص البحث

سلط هذا البحثُ الضوء على ضرورة نشر الوعي اللغوي والعناية باللغة العربية وسلامتها ، لانّ ذلك هو سبيل العناية بالقرآن الكريم ، للارتباط الذي بينهما ، فلولا القرآن لما بقيت العربية ، ولولا العربية لاستعجم القرآن على اهله نصاً وفهماً .

كما لاحظ البحث انّ الدول الإسلامية التي تبحث عن وحدتها عليها انْ تعنى بلغة كتابها المقدس وتراثها الإسلامي اللغة العربية ، وانْ تغلب العناية بها على العناية باللغات المحلية . ونبّه البحث على ان الدراسات الاستشراقية للنص القرآني على انّه كتاب بشري ، وهي لم تستكمل أدواتها الصحيحة لأنّ مناهجها قامت على اللغات الأوربية ولم تعن بواقع العربية النقي وهو الذي يمثّله القرآن المتلوّ والمرتل ، واتجهت الى دراسة واقع الخطأ في العربية واللحن الذي قامت علوم العربية بمهمة تصحيحه ذلك هو اللهجات العامية في البلدان العربية . فوقعت هذه المناهج بالقصور الناجم عن عدم مراعاة السياق المعرفي للعربية وعلومها وكذلك السياق التاريخي ، ولا ينفعنا في هذه المناهج سوى الأسلوبية التي تعنى بدراسة مستويات اللغة الأربعة : الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي . وقد سبق إلى ذلك علماء الأمة من المفسرين وشراح دواوين الشعر وطبقوا هذا المنهج في مؤلفاتهم ودراساتهم قبل قرون على نشأته عند الأوربيين ومن الله التوفيق .

Abstract

Key words : Parsing/ Al- Basra school / Al-kufa school / Solecism

This paper is shedding light on the necessity of popularizing the awareness and concern in the Arabic language and it's soundness . For it is the only way to keep the holy Qur'an language : For the big connection between Qur'an and Arabic language .If it is not for the holy Qur'an ,Arabic language would not be still alive; if it is not for the Arabic language, the holy Qur'an would be obscure even to Arab people.

The paper concluded that the Islamic states ,seeking for unity ,should give priority to the standard Arabic language over the local dialects .The paper also draws attention to the fact " oriental studies claims that Qur'an text is human" , depending only on the methodology that are used in the European languages ; neglecting the standard Arabic language methodology . and focusing on the local languages in each country.

While the stylistic methodology, that studies all four levels of language, is the only useful way . These levels are : phonological, morphological ,syntax and semantic.

The Islamic scholars were the first to use the stylistic methodology in interpreting poetic works and in composing their publications; They did that many centuries before the European scholars.

مقدّمة

يهدفُ البحثُ إلى نشر الوعي بضرورة تعليم العربية للأجيال نطقا وكتابة ، وجعلها لغة التخاطب اليومي ، لأنها لغة القرآن الكريم . وهو كتاب يُتعبد بتلاوته فضلاً عن كونه كتاب هداية وتشريع ، فالخطأ في تلاوته يقود إلى خطأٍ في التعبّد .

وإنّ التوسّع في تلاوة القرآن يرتقي بالواقع اللغوي إلى حالة النقاء التي يمثّلها النص القرآني فوق حالة الخطأ واللحن التي تمثّلها العاميّات .

فالارتباط وثيق بين العربية والقرآن . فهو يعصمها من أن تَمحي من خلال انحدار النطق والكتابة إلى شيوع حالة الخطأ في العربية وفشوّها ، وجعلها لغة الخطاب والكتابة بدل لغة النص القرآني والتراث اللغوي .

وأقصد بالوعي اللغوي : ادراك أهمية العناية بالعربية وعلومها وارتباطها بالقرآن الكريم كونها لغة النص القرآني ، ولا يمكن فهم النص القرآني وأسرار نظمه وتأليفه إلاّ بمعرفة علوم العربية وأسرارها وأساليبها ، وأنحاء استعمالاتها وَسَمْت ذلك كله .

ومعرفة ما أثاره النص القرآني من وَعْيٍ لغويٍّ انصبَّ على العربية درساً وتأليفاً منذ نزول نصه إلى يومنا هذا ويستمرّ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها .

فالعناية بالقرآن بوصفه كتاباً يُتَعَبَّدُ بتلاوته لا تَتِمُّ إلا بالعناية بلغته العربية ومعارفها على المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي. فالخطأ في لغة القرآن تلاوةً وفهماً يمثل خطأً في التعبد بهذا النص المُحْكَم المبين .

أهمية العربية وارتباطها بالنص القرآني :

تنبع هذه الأهمية من كون العربية لغة النص القرآني ، وإذ يحمل القرآن رسالة وخطابا للإنسانية ، فالعربية لغة إنسانية ، ففي سورة يوسف /٢١

انَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ يوسف:

وفي سورة الأنعام /

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ: ٩٠

وفي سورة الأنبياء الآية /١٠٧ يتضح البعد الإنساني للرسالة المعبر عنها بلغة النص القرآني :

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ الأنبياء: ١٠٧

وكذلك في سورة سبأ / ٢٨

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

إن اختيار العربية لغةً للتنزيل لم يكن من باب تكريم هذه اللغة فحسب ، وإنّما لأنّها تنطوي على خصائص وتتماز بميزات تمكّنها من استيعاب مفاهيم القرآن والتعبير عن رسالة الإسلام .

فالعربية تحتفظ بالإعراب ، وما تعبّر عنه علاماته من دلالة على المعاني تقود الى اتساعٍ في دلالة النص ودقةٍ في ضبطه نطقاً وصورةً .وتمتلك ثروةً اشتقاقيةً لا تمتلكها لغة سواها وأعطاها ذلك قدرةً على توليد الألفاظ واستمرار تطور دلالتها والاقتصاد بالألفاظ مع سعة المعنى والدلالة .

ويكفي أن نتذكر ما قاله إبن فارس في مادة عرب التي اشتُقَّ منها الإعراب :

((العين والراء والباء أصول ثلاثة : أحدها الإبانة والإفصاح ، والآخر النشاط وطيب النَّفْس ، والثالث فسادٌ في جسم أو عضو . فالأول قولهم : أعرب الرجل عن نفسه ، إذا بيّن وأوضح . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الثَّيِّبُ يُعْرِبُ عنها لسانُها ، والبِكرُ تُسْتَأمَرُ في نفسها » وجاء في الحديث : « يُسْتَحَبُّ حين يُعْرِبُ الصبيُ أن يقول لا إله إلا

الله سبعَ مرّاتٍ « أي حين يُبينُ عن نفسه . وليس هذا من إعراب الكلام ، وإعراب الكلام أيضًا من هذا القياس ، لأن بالإعراب يُفْرَقُ بين المعاني في الفاعل والمفعول والنفي والتعجب والاستفهام ، وسائر أبواب هذا النحو من العلم . فأمّا الأمة التي تُسَمّى العربُ فليس ببعيد أن يكون سميّت عرباً من هذا القياس ، لأن لسانها أعرب الألسنة ، وبيانها أجود البيان . ومما يوضح هذا، الحديث الذي جاء : « إن العربية ليست باباً واحداً ، لكنها لسانٌ ناطقٌ «))[١] .

لم يمنع من ذلك ، التعبير عن الإعراب نطقاً قبل الاهتداء إلى رسم صوره النطقية برموز كتابية .

وإذا ادعى بعض الأدعياء من غربيين ومستغربين على النص القرآني أنه نزل خلوًّا من الإعراب ، فهذا بهتانٌ مبين يكذِّبه الواقع اللغوي قبل نزول القرآن وبعده . فقد روي الشعر الجاهلي بوجوه مختلفة في حركة أواخر الكلم ، وفي حركات بنية الكلمات ، وما يعتريها من علل صوتية من فكٍّ وإدغام ، وإعلالٍ وإبدال ، وهمز وتسهيل .

وإذا كان هؤلاء قد توسّعوا في ظاهرة الانتحال ونظرية الشك بهذا الشعر، فقد يسَّرَ الرد على طعونهم جهدُ مدرسة البصرة ومنهجها النحوي الذي انطلق من النص الشعري ضمن عصر الاحتجاج ، ووقَعَ عليه درساً وتمحيصاً في تحقيق نصه ودراسة متنه ، لاستخلاص القواعد وإقامة أصول العربية .

وكذلك فعل الكوفيون الذين انطلقوا في دراسة اللغة من النص القرآني ، والتمسوا الأشباه والنظائر من القرآن أولاً، ثم من الشعر وكلام العرب مع عنايتهم الخاصة بالقراءات القرآنية .

والقراءات القرآنية تكذِّبُ دعواهم في خلوِّ القرآن من الإعراب ، فمناط الاختلاف فيها مستويات اللغة الأربعة : الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي ، وسنذكر هذه الوجوه مفصلةً كما درسها إبن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، فمن أين جاء الاختلاف النحوي ما لم يكن نصُّ القرآن معرباً ؟

ولكن ، ونحن نركن إلى الموضوعية في البحث العلمي ، علينا أن لا ننسى أن بعض من عُنيَ بدراسة القراءات من هؤلاء الدارسين الغربيين نظر في المستندات المكتوبة ، من مثل جولد تسهير أو جولد زيهر كما يرسمه بعض الباحثين ، وهو مستشرق هنغاري يهودي الديانة ، الذي خلص في كتابه : مذاهب التفسير الإسلامي إلى أن القراءات نتجت في أغلبها من كون الخط العربي جاء غفلاً من النَّقْط والحركات ، فهو يزعم خلو المصحف من النَّقْط، وانعدام الحركات الإعرابية والشكل في الخط العربي.[٢]

وهو لا يعلم أن النص القرآني يؤخذ شفاهاً وروايةً ، بل إنّ رواية جماعةٍ صادقةٍ غير كاذبة ، ولا يمكن أن تتواطأ على الكذب ، عن جماعةٍ أخرى صادقةٍ غير كاذبة كذلك ، هو المعتبر في ثبوت نصّه وقرآنيته .

فالقرآنية تثبت بالتواتر والقرآن يؤخذ شفاهاً وحفظاً، فهو تُتَلَقَّفُ ألفاظه عن حفَّاظه ، وهذا ما لم يقف عنده أولئك الدارسون عامدين أو جاهلين .

فالإعراب ظهر في تلاوة القرآن منطوقاً قبل أن يهتدي أبو الأسود الدؤلي

(ت ٦٩ هـ) إلى الرموز المعبّرة عنه في نَقْطِهِ للمصحف ، و لو لم يكن النص القرآني معرباً لما اهتدى أبو الأسود الدؤلي إلى نَقْطِهِ بتلك الرموز المعبرة عن حركات الإعراب .

ولو نظرنا في ما ألّفه علماء الأمة في نقط المصحف لوجدنا ما يعزز ذلك فهذا أبو عمرو الداني (عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر ت ٤٤٤ هـ) يقول في مقدمة كتابه « النَّقْط « : ((إني لمّا أتيت في كتابي هذا على جميع ما تضمنت ذكره في أوله من مرسوم المصاحف رأيت أن أصل ذلك بذكر أصول كافية ونكت مقنعة في معرفة نقط المصاحف وكيفية ضبطها على ألفاظ التلاوة ومذاهب القراءة))[٣]

فأنت ترى أن ضبط النقط جرى على التلاوة والقراءة فهي سابقة على الاهتداء إلى رموزها المكتوبة التي عبّر عنها قول أبي الأسود الدؤلي لمن اختاره كاتباً لنقطه على المصحف ، بعد أن أحضر مصحفاً وأحضر صبغاً يخالف لون المداد وقال : ((للذي يمسك المصحف عليه إذا فتحتُ فايَ فاجعل نقطةً فوق الحرف وإذا كسرتُ فايَ فاجعل نقطةً تحت الحرف وإذا ضممتُ فايَ فاجعل نقطةً أمام الحرف فإن أتبعتُ شيئاً من هذه الحركات غُنّةً ، يعني تنويناً، فاجعل نقطتين ففعل ذلك حتى اتى على آخر المصحف))[٤]

ومن واجب المسلمين أن يظهروا البعد الإنساني لهذه اللغة من خلال إذاعة تعليمها . وقد دعا علماء الأمة الذين ألّفوا كتباً في تقويم اللسان واليد وتحصيل الثقافة بدءاً بعلوم اللغة إلى بذل الجهد في ذلك . قال إبن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) :

((وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلّق من الإنسانية إلاّ بالجسم ، ومن الكتابة إلاّ بالاسم ، ولم يتقدّم من الأداة، إلاّ بالقلم والدواة ، ولكنها لمن شدا شيئاً من الإعراب، فعرف الصَّدر والمصدر والحال والظرف، وشيئاً من التصاريف والأبنية ، وانقلاب الياء عن الواو ، والألف عن الياء وأشباه ذلك))[٥] .

وعبد القاهر الجرجاني صاحب نظرية النَّظْم ، التي يُعَبِّرُ عنها بأنها توخِّي معاني النحو يرى في الصَّد عن تعلّم النحو ودراسة وفهم أسرار العربية صدًّا عن كتاب الله ، فاسمعه يقول : ((وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له ، وإصغارهم أمره ، وتهاونهم به (...) أشبه بأن يكون صدًّا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه ، ذاك لأنهم لا يجدون بدًّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه ، إذ كان قد عُلم أنّ الألفاظ مغلقةٌ على معانيها حتى يكونَ الإعراب هو الذي يفتحها ، وأنّ الأغراض كامنةٌ فيها حتى يكونَ هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلامٍ ورجحانِهِ حتىّ يُعرَضَ عليه ، والمقياس الذي لا يُعْرفُ صحيحٌ من سقيمٍ حتى يرجع إليه))[٦] .

فالمطلوب اليوم ابتكار أساليب إيصال علوم العربية إلى الأجيال من أبناء الأمة الإسلامية من أهل العربية، وغير الناطقين بها ، والحرص على الارتباط بين العربية لغة التنزيل والتلاوة والتعبّد ونص القرآن المتعبّد به ، ووعي تلك الصلة وذلك الارتباط كما وعاه علماء الأمة عير القرون .

وقد استوى اليوم أو يكاد أهل العربية وسواهم من غير الناطقين بها من المسلمين بفشوّ اللحن وشيوع « لغة » الخطأ في نطق العربية ، ومن المسلمين من يكاد لا يحسن من العربية سوى قراءة سورة الفاتحة . وتجرّأ من تجرَّأ على الدعوة الى هجران العربية والكتابة « بلغة » الخطأ واللحن والفساد التي سمّوها العامية ومنهم من ترقّى في التسمية ، فسمّاها لغة الحياة اليومية ، أو لغة الخطاب اليومي .

ومنهم من تجرّأ أكثر من سواه ودعا إلى تقنين تلك العاميات ، بحجة أنها هي التي تدور على الألسن ، ونسي أن التخاطب بالفصحى يجري يومياً من خلال تلاوة القرآن الكريم في دور العبادة ووسائل الإعلام . فتلاوة القرآن تكوِّن واقعاً لغويًا حريًّا بالدراسة لاسيما أن علم اللغة الحديث أو ما اصطلح بعض الدارسين العرب على تسميته بالألسنية يُعنى بدراسة اللغة من أفواه الناطقين بها . ويحقُّ لنا أن نتساءل : لماذا يُهْمَلُ هذا الواقع اللغوي الذي تشكّله تلاوة القرآن ويُصار إلى العناية بالعاميات التي تمثّل واقع الخطأ في الأداء اللغوي ؟

ومن الساسة في الدول الإسلامية من عمد إلى استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية في لغة قومه مثلما فعل مصطفى كمال أتاتورك مستغلاً نفوذه وهيمنته على السلطة في بلاده تركيا ، متستراً بدعوة الحداثة .

وقد انتقل هذا المرض ـ معاداة العربية ـ إلى بعض

دعاة الثقافة الغربية ، والمستغربين باسم الحداثة والتحديث .

إن هجران العربية يعني هجران القرآن والطمس على نصه واستعجام فهمه على الناس . واستبق النص القرآني بما ينطوي عليه من علم معرفة المستقبل واستشرافه ما يجري عليه وعلى لغته ، ونلمس آثاره في زماننا هذا ، فاسمعه يقول في الآية /٣٠ من سورة الفرقان على لسان الرسول يشكو إلى ربه هجران قومه القرآن :

قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا الفرقان: ٣٠

فهي شكوى تصرخ صباحَ مساءَ بوجه من يسعى في ذلك ممّن يحاول الطمس على العربية وعلومها وتعليمها للأجيال .

وقد حرص العلماء على تبيان أنه لا يمكن تحصيل مفاهيم القرآن وعلومه كافة إلاّ من طريق لغته وإتقانها وفي هذا يقول الزملكاني (ت ٦٥١ هـ) صاحب كتاب البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن:

((وأمّا طريق تحصيله فإتقان جملة من علمي اللغة والنحو لأنها وسيلة إليه ومقدمات بين يديه ومن جهل الأصل كيف يعرف جهة التعريف عليه ؟ .))[٧] .

وعن ارتباط فهم القرآن والعلوم المستنبطة منه ، وما انبثق عنها بأصول الفقه والعربية يقول الأسنوي (ت ٧٧٢ هـ) :

((علم الحلال والحرام الذي به صلاح الدنيا والآخرة، وهو المسمى بعلم الفقه ، مُسْتَمَدٌّ من علم أصول الفقه والعربية . فأمّا استمداده من علم الأصول فواضح وتسميته بأصول الفقه ناطقة بذلك ، وأمّا العربية فلأنّ أدلته من الكتاب والسُنة عربية ، وحينئذٍ فيتوقّف فهم تلك الأدلة على فهمها والعلم بمدلولاتها على علمها)[٨]

إن إذاعة تعليم العربية وجعلها اللغة الأولى للأمة الإسلامية تتطلّب من حكومات الدول الإسلامية ومؤسساتها التربوية ، والمؤسسات الإسلامية المستقلة عن الحكومات أن تتبّنى مشروع إحياء تعليم العربية من خلال تعليم القرآن الكريم لأجيال الأمة .

ولا يجوز الاكتفاء بتعليم القرآن مترجما إلى اللغات المحلية للأقطار الإسلامية ، لأن النص المترجم ليس نصاً قرآنيّاً يُتَعَبَّدُ بتلاوته ، وإنّما هو تفسيرٌ للقرآن . والمسلم مأمور بتلاوة القرآن لا ترجمته أو تفسيره ، ففي سورة المزمل من الآية٤ / وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا

وقد أدرك أبناء الأمة الإسلامية من مختلف الأجناس في صدر الرسالة هذه الحقيقة . لذلك تعلموا العربية وعلّموها مع تعليم القرآن ونشر علومه وألّفوا مئّات ، بل آلاف الكتب في مختلف المعارف القرآنية واللغوية بالعربية ، وهذا تراث المسلمين يشهد بذلك مخطوطا ومطبوعا .[٩]

بقي أن نقول في هذا الموضع من البحث : إن لغة القرآن سابقةٌ على نزوله في الاستعمال ، وإنّ التحمّس الذي يدفع بعض الباحثين المسلمين إلى القول بأن العربية أوجدها القرآن خطأٌ جسيم ، لأنّه يتفق مع دعوى أعداء القرآن الذين يدَّعون كذباً وبهتاناً أنّه من صنع محمد ، حاشا لله ، فمحمد رسول الله ونطق عن وحي الله . وإن قول من قال لا عربيةَ قبل القرآن يقود إلى إبطال التحدي الذي أعجز العرب من أن يأتوا بمثل نصّه ، وهم أئمة القول وفرسان البيان ، إنّ التحدي خير دليل على وجود العربية التي نزل بها القرآن منطوقةً ، يستعملها الناس ، قبل نزوله .

ـ القرآن يعصم العربية من أن تزول :

حين نزل القرآن الكريم كانت العربية لغة الشعر ولغة التخاطب ، ولغة الشعر هي اللغة الموحدة ، التي يسمعها العربي في كل قبيلة من قبائل العرب، فيطرب لها ويتأثّر بها ويحفظها ويرويها مستأنساً بالقصد ومحتفياً بالشاعر[١٠] .

فلا مفارقة بين اللغة المنطوقة ، واللغة المكتوبة سوى بعض الاختلاف في اللهجات[١١] التي قد تقع

في المستوى الصوتي : أو الصرفي أو النحوي أو الدلالي من مستويات اللغة .

ونزل القرآن على وفق سنن العرب في كلامها[١٢] وأخذ بلهجات العرب أو لغاتهم كما كانت تُسمى ، وقد ألّف العلماء في لغات القرآن[١٣] .

وإذا كان من طبيعة اللغات أنّها تتطوّر على ألسنة الناطقين بها ، فإنّ العربية ليست بدعا من بين تلك اللغات وشهدت تطوّرا في تاريخها الطويل ، وقد جرت دراسات معمقة مستفيدة من علم الآثار وعلم اللغة الحديث والدراسات الألسنية وشهدت هذه الدراسات للعربية بالقدم ، وأنّها أصل اللغات السامية أو الجزرية .[١٤].

نقول : إن العربية شهدت تطوّرا على ألسنة الناطقين بها إلى أن نزل القرآن الكريم ، واتخذها الوحي الإلهي لغة التنزيل ، يتعبّد المسلمون بتلاوته صباح مساء ، فأبقى الواقع اللغوي النقي حاضرا مستمرا إلى يومنا هذا . وقد تأثّر المسلمون من غير العرب تأثّراً بالغاً بلغة القرآن وصفه المستشرق « فوك « في كتابه العربية بقوله ((إنّ لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم ، أياً كانت لغته الأصلية ، جزءاً لا ينفصل من حقيقة الإسلام))[١٥] .

وحرصوا على إتقان العربية للتمكن من تلاوة القرآن تلاوةً صحيحةً وإنْ شقَّ عليهم ذلك ، وغلبت بعض آثار تكلفه في أدائهم اللغوي ، ويصوِّر ذلك الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) بقوله : ((وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه متخيراً فاخراً ، ومعناه شريفاً كريماً ، ويعلم مع ذلك السامعُ لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطيٌّ . وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فإنك تعلم مع إعرابه وتخيُّر ألفاظه في مخرج كلامه أنه خراساني، وكذلك إنْ كان من كتّاب الأهواز))[١٦] .

وبعد اشتداد النعرات والتعصّب القومي لدى الكثير من ساسة الأقوام التي دخلت الإسلام ، بدأت بحركات التسوية التي نشأت ضدَّ سياسة التمييز التي انتهجتها الدولة الأموية ما أدى الى نموّ الشعور بالاضطهاد في نفوس من عُرفوا بالموالي وهم المسلمون من غير العرب . ومما زاد في حركة الارتداد عن العربية وتعلّمها ونشرها انحراف الدولة عن مبادئ الإسلام الأولى التي تساوي بين الجميع في العطاء وغيره من الجوانب الإنسانية . لقد أنتجت السلطة الأموية التي أسقطت الخلافة الراشدة بالخروج على الخليفة الشرعي بقوة السلاح والتمرّد إسلاماً خاصاً بها فرّق بين المسلمين من عرب وسواهم ، وفرَّق بين العرب أنفسهم وأشاع الروح القبلية وسعى في إحياء الجاهلية. لذلك تراجعت العاطفة والشعور بأن تعلّم العربية من الواجبات الدينية ، وأن حبَّ الإسلام وكتابه الكريم يقتضي حبَّ العربية ، وبدأ الشرخ يكبر بين المسلمين والسلطة من عرب وسواهم . لكن الشعور بالاضطهاد كان يتصاعد في نفوس المسلمين من غير العرب ، وتواجهه السلطة بالقمع ، مع أنّ السلطة قتلت خيرة الصحابة من العرب الذين طالبوا بالعودة الى مبادئ الإسلام ومنها العدالة والمساواة في السنين الأولى بعد إسقاط الخلافة الراشدة وتولي البغاة مقاليد السلطة القائمة على القتل والإرهاب والتهجير .

وأعلن الإمام الحسين عليه السلام ثورته السلمية الإصلاحية ، وجابهتها السلطة بالقمع قتلاً وسبياً لآل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وسقطت السلطة المنحرفة عام ١٣٢ للهجرة ولكن العربية لم تسقط ، ويصوِّر ذلك يوهان فك بقوله ((ولم يقحم سقوط الدولة الأموية «... « لغة العرب معه في الاضمحلال والانحلال ، بل لقد شهد عصر النور في أوائل الدولة العباسية أقصى درجات العناية بالقواعد العربية))[١٧] . وأدى الانحراف عن سنة الرسول في الحكم والإدارة الى أن يتوارث المتسلطون الحكم الذي يقترب من الجاهلية ويبتعد عن الإسلام الى

درجة الابتعاد عن القرآن ، ومحاربة لغته ، وسعى السلاطين في محو العربية واستبدالها بلغاتهم المحلية ولم يكتفوا بذلك ، وإنّما تعدّوه الى اتباع سياسة التتريك وسياسة التفريس أي إكراه من ينطق العربية على نطق لغة السلاطين من ترك وفرس .

وبعد الحرب العالمية ، وظهور ماسمي بعصر المنظومات الفكرية « الأيديولوجيا » وتأسيس الأحزاب أشاع الغرب الدعوة الى إذكاء الشعور القومي وتأسيس حركات وأحزاب تدعو الى تأسيس الدول القومية لاسيما في البلدان الإسلامية فانتشر الارتداد عن العربية نطقاً وتعليماً وحلّ محلها الاهتمام والعناية باللغات القومية المحلية بدلاً من العناية بلغة القرآن . وسعى بعض السلاطين في بسط سياسة التتريك ، والتفريس إذ لم يقتصر الأمر على استئصال العربية وإنمّا تعدّاه الى استئصال العرب أنفسهم وصهرهم في قوميات الدول التي أقامها أولئك باسم الإسلام ، وكأن الإسلام ممكن التطبيق من دون قرآن ، وكأن القرآن ممكن الفهم من دون عربية .

ومع ذلك، فكلما اتسعت تلاوة القرآن اتسع الواقع اللغوي النقي الذي يستصحب حال اللغة التي نزل بها الوحي ، ونطق بها الرسول قبل قرابة الألف واربعمئة عام .

والتطوّر سمة من سمات اللغات الإنسانية ، قد يؤدي إلى إنتاج لغات جديدة تماما ، ولا علاقة لها باللغة القديمة التي تطوّرت عنها ، أو قد يؤدي هذا التطور إلى إبعاد اللغة عن أصولها التعبيرية الأولى وكذلك صورها الكتابية . وهذا ما حصل للغات القديمة عبر التاريخ في الشرق والغرب .

في أوربا مثلاً إذ تطورت اللغة اللاتينية إلى اللغات الأوربية الحديثة كالإنكليزية والفرنسية وسواها. والناظر في الانكليزية يجد أنّها تطوّرت كذلك على ألسنة الناطقين بها حتى إنك لتجد مستعمل هذه اللغة اليوم لا يفهم لغة شكسبير إلاّ بترجمان وهذا ديدن الكثير من اللغات ، إلاّ العربية فإنّها حافظت على نقائها . ومن يلاحظ ذلك يقول لو أنّ النبي محمدا (صلى الله عليه وآله سلم) بُعِثَ حيّاً وكلّمَ المسلمين العرب اليوم ، لفهموا كلامه ، ولو أنهم كلّموه لفهم كلامهم ، أليست هذه معجزة ؟ ونحن نجيب : بلى هذه معجزة ، لأنّ القرآن الكريم عصم العربية من أن تزول ، ذلك بأن تلاوته تخلق واقعا لغويا نقيا خاليا من شوائب الخطأ واللحن الذي تمثّله العاميات في بلداننا العربية ، فالعاميات واقع الخطأ واللحن في اللغة ، وتلاوة القرآن الكريم الواقع اللغوي النقي الذي بقي هُو هُو كما نزل به الروح الأمين وحياً على صدر النبي الأمين عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه المؤمنين أفضل الصلاة والتسليم .

كلما توّسعنا في تلاوة القرآن واستعملنا التقنيات الحديثة في إيصال هذه التلاوة عبر الفضائيات إلى الإنسانية نوسّع من الواقع اللغوي النقي لدى من عرف حظاً من العربية ، ونمكّن لمن يستمع لهذه التلاوة من أبناء الأمة الإسلامية والمعنيين بالعربية من غير المسلمين لُغَتَهُ الفصيحة لاسيما إذا كان قد حصل على حظٍّ من تعليم العربية ويؤدي ذلك أيضا إلى نشر المفاهيم القرآنية .

فالمؤسسات الإسلامية الأكاديمية وغير الأكاديمية مطالبة بتقدّم الصفوف في حمل راية نُصرة العربية وإحياء تعليمها لغير الناطقين بها ، والارتقاء بمستوى تعليمها وطرائق أدائه لأجيال الناطقين بها .

فالأمة الإسلامية وهي تبحث عن عوامل وحدتها عليها أن لا تنسى أهم هذه العوامل: لغتها المقدسة، لغة القرآن الكريم ، لغة أهل الجنة كما بشّر بذلك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الطاهرة. إذ روي عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام ما يفيد انه : إذا قُرئ القرآن على أعجميه فإن الملائكة ترفعه على عربية [١٨] وهذا ينبئ بأن العربية لغة الملأ الأعلى .

ـ دراسة علوم العربية من خلال النص القرآني :

لو عدنا الى تاريخ علوم العربية نجد أنّها نشأت في ظلال النص القرآني ، وما من علم من علوم الحضارة الإسلامية الأخرى إلاّ ويمتُّ بسببٍ إلى القرآن الكريم .

وكانت هذه العلوم تُدَرَّسُ في المسجد قبل أن تنشأ المدارس وتُتَّخَذُ موئلاً للتعليم المتخصص . والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أول من سَنَّ للناس اتخاذ سبيل حلقات الدرس إذ نَظَّمَ جلوس أصحابه على هيأة حلقة ليأخذوا تعاليم دينهم وقرآنهم من حضرته . فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((كان يُقْرئهم العشر ، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل ، فعلمنا القرآن والعمل جميعاً))[١٩] .

وهكذا ترى أن المسلمين الأوائل كانوا يدرسون القرآن ويأخذون معارفه من النبي الأكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم مشافهةً ويتقنون العلم والأحكام التي في الآيات العشر قبل أن يغادروها الى عشر آيات أخر . ومن المعلوم أن النص القرآني نزل على وفق سنن العرب في كلامها ، لكنه وَعَبَ الفصيحَ من لغاتها ، ولم يقتصر على لغة قريش وإن كان قد خاطب الرسول الكريم في سورة الشعراء/٢١٤ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ .

فالخطاب لقريش ولابد من أن يقع بلغتهم ، وتحدّاهم بهذه اللغة ، غير أن التحدي للعرب كافة والدعوة للإنسانية عامة . وهذا لايمنع من القول بأن لغة قريش هي الغالبة على لغات العرب الأخر، وكان الصحابة يسألون النبي صلى الله عليه وعلى آله عن بعض ألفاظ القرآن التي لم يسمعوا بها في لغة خطابهم اليومي .

ومن المعلوم أنّ النص القرآني نزل معرباً ،على غير ما توهّمه بعض المستشرقين ، وتعدّدت قراءاته وقد أثارت القراءات القرآنية حركة لغوية ودرساً لظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وقد بين إبن قتيبة المتوفى (٢٧٦ هـ) اختلاف القراءات بقوله : ((وقد تدبّرت وجوه الخلاف في القراءات فوجدتها سبعة أوجه أولها : الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغيّر معناها نحو قوله تعالى : « هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرُ لكم » هود / ٧٨ ، وأَطْهرَ لكم ،» و هل نجزيَ إلا الكفورَ « سبأ / ١٧ وهل يُجازى إلا الكفورُ، « ويَأْمُرُونَ النّاسَ بالبخلِ « النساء / ٣٧ وبالبَخَل ، « فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ « البقرة / ٢٨٠ ومَيْسُرَةٍ .

والوجه الثاني : أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغيِّر معناها ، ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب ، نحو قوله تعالى : « رَبَّنا باعِد بينَ أسفارنا « سبأ / ١٩ و رَبُّنا باعَدَ بَينَ أسفارنا ، و «إذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُم « النور / ١٥ و تَلِقُونَهُ ، « وادَّكَرَ بعدَ أُمَّةٍ « يوسف / ٤٥ وبعد أَمَةٍ .

والوجه الثالث : أن يكونَ الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها ، بما يغيِّر معناها ولا يزيل صورتها ، نحو قوله : « وَانظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها « البقرة / ٢٥٩ و نُنْشِرُها ، ونحو قوله : « حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم « سبأ / ٢٣ و فُرِّغَ))[٢٠] ثم يذكر الوجوه الأخر فيقول :

((والوجه الرابع : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغيِّر صورتها في الكتاب ، ولايغيِّر معناها ، نحو قوله : « إنْ كانت إلاّ زَقْيَةً « و» صَيْحَةً « يس / ٢٩ ، و» كالصُّوفِ المَنْفُوشِ « و « تكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المَنْفُوشِ « القارعة /٥ .

والوجه الخامس : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها نحو قوله : « وطَلْعٍ مَنْضُود « في موضع « وطَلْحٍ مَنْضودٍ « الواقعة / ٢٩ .

والوجه السادس : أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير . نحو قوله : « وجاءتْ سَكْرَةُ الموتِ

بالحق « ق /١٩ وفي موضع آخر : « وجاءت سكرة الحق بالموت « .
والوجه السابع : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ، نحو قوله تعالى : « وما عملت أيديهم « ، « وما عملته أيديهم : يس /٣٥ ونحو قوله « إن الله هو الغني الحميد « لقمان / ٢٦ و « إن الغني الحميد « . وقرأ بعض السلف « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة « ص / ٢٣ أنثى ، وإن الساعة آتية أكاد أخفيها « طه / ١٥ من نفسي فكيف أظهركم عليها .))[٢١]
وقد ذكرت لك هذا النص كاملا ، وبحروفه من دون تصرف لأهميته كونه أول نص يصنف القراءات من حيث صور أدائها التعبيرية ، وتبيانه أصالة تعدّد وجوهها . وقد سوغ إبن قتيبة هذا وسواه بقوله :
((وكل هذه « الحروف « كلام الله تعالى ، نزل به الروح الأمين على رسوله عليه السلام وذلك أنه كان يعارضه في كل شهر من شهور رمضان بما اجتمع عنده من القرآن ، فيحدث الله إليه من ذلك ما يشاء وينسخ ما يشاء ، وييسّر على عباده ما يشاء . فكان من تيسيره أنْ أمره بأنْ يقرئ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم ، فالهذلي يقرأ « عتّى حين « يريد : « حتى حين « المؤمنون / ٥٤ لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها . والأسدي يقرأ : تِعلمون وتِعْلَم و» تِسْوَدُّ وجوهٌ « آل عمران / ١٠٦ و» أَلم إعْهَد إليكم « يس / ٦٠ والتميمي يهمز والقرشي لا يهمز ، والآخر يقرأ « وإذا قيلَ لهم « البقرة/ ١١ ، « وَغُيضَ الماءُ « هود / ١٤ بإشمام الضم مع الكسر ، و»هذه بِضاعَتُنا رُدَّتْ إلينا « يوسف / ٦٥ بإشمام الكسر مع الضم ، و « ما لك لا تَأمَنَّا « يوسف / ١١ بإشمام الضم مع الإدغام ، وهذا ما لايطوع به كل لسان .
ولو أنّ كل فريق من هؤلاء ، أُمِرَ أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتدَّ ذلك عليه ، وعظمت المحنة فيه ، ولم يمكنه إلاّ بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسان ، وقطع للعادة ، فأراد الله ، برحمته ولطفه ، أن يجعل لهم متسعاً في اللغات ، ومتصرَّفاً في الحركات ،كتيسيره عليهم في الدين حين أجاز لهم على لسان رسوله صلى الله عليه وآله ، أن يأخذوا باختلاف العلماء من صحابته في فرائضهم وأحكامهم ، وصلاتهم وصيامهم ، وزكاتهم وحَجِّهم وطلاقهم وعتقهم ، وسائر أمور دينهم))[٢٢]

ثم يفترض سائلاً يسأله فيجيبه على طريقة علماء الأمة في استعمال المناظرة المتخيّلة على سبيل التعليم والتقريب مواصلاً تبيانه للموقف من اختلاف القراءات وتعدّدها فاسمعه يقول : ((فإن قال قائل : هذا جائز في الألفاظ المختلفة إذا كان المعنى واحداً، فهل يجوز أيضاً إذا اختلفت المعاني ؟ قيل له: الاختلاف نوعان : اختلاف تغاير واختلاف تضاد، واختلاف التضاد لا يجوز ، ولستَ واجدَة بحمد الله في شيءٍ من القرآن إلا في الأمر والنهي من الناسخ والمنسوخ))[٢٣]
ثم يفصل المفاهيم القرآنية التي ذكرها مع تبيانها وإجلائها بالأمثلة فيقول :
((واختلاف التغاير جائز ، وذلك مثل قوله : « وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ « يوسف / ٤٥ أي بعد حين ، « وبَعْدَ أَمَةٍ « أي بعد نسيان له ، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان ، لأنه ذكر أمر « يوسف « بعد حين وبعد نسيان له ، فأنزل الله على لسان نبيه، صلى الله عليه وعلى آله ، بالمعنيين جميعاً في غرضين ، وكقوله : « إذ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُم « النور /١٥ أي تقبلونه وتقولونه ، و» تَلِقُونَهُ « من الوَلَق ، وهو الكذب ، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا صحيحان، لأنهم قبلوه وقالوه، وهو كذب ، فأنزل الله على نبيه بالمعنين جميعاً في غرضين ، وكقوله : « رَبَّنا باعِدْ بين أسفارنا « سبأ / ١٩ على طريق الدعاء والمسألة ، و « رَبُنا باعَدَ بين أسفارِنا « على جهة

الخبر ، والمعنيان وإن اختلفا صحيحان ،لأن أهل سبأ سألوا الله أن يفرِّقَهُم في البلاد فقالوا : رَبَّنا باعِدْ بين أسْفارنا ، فلمّا فرَّقَهم الله في البلاد أيْدي سبأ وباعد بين أسفارهم ، قالوا : ربُّنا باعَدَ بين أسفارنا وأجابنا الى ما سألنا ، فحكى الله سبحانه عنهم بالمعنيين في غرضين . وكلك قوله : « لقد علمتَ ما أنزَلَ هؤلاء إلاّ ربُّ السماوات والأرض » الإسراء / ١٠٢ ، و « لقد علمتُ ما أنزل هؤلاء لأنّ فرعون قال لموسى إنّ آياتك التي أتيتَ بها سحر ، فقال موسى مرة : لقد علمتُ ماهي سحر ولكنها بصائر ، وقال مرة لقد علمت أنت أيضاً ما هي سحر، وما هي إلاّ بصائر فأنزل الله المعنيين جميعاً))[٢٤]

ويواصل إبن قتيبة تبيان مفاهيم القراءات والذود عن نص القرآن بدحض حجج الملحدين وما يثيرونه من دعوى التناقض في النص القرآني مستحضراً الأمثلة من النص القرآني مستعيناً باللغة وما تتيحه سعة دلالتها وتعدّد وجوهها من فهم وتوجيه للقراءات ، فيقول :

((وقوله : « وأعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكأً » يوسف /٣١ وهو الطعام ، و» واعتدت لهنَّ مُتْكاً « وهو الأتْرُج ، ويقال الزُّماورد ، فدلّت هذه القراءة على معنى ذلك الطعام، وأنزل الله بالمعنيين جميعاً ، وكذلك « نُنْشِرُها « و « نُنْشِزُها « ، لأن الإنشار : الإحياء ، والإنشاز : هو التحريك للنقل ، والحياة حركة ، فلا فرق بينهما .وكذلك : فُزِّعَ عن قلوبهم « سبأ / ٢٣ و « فُرِّغَ « لأنّ « فُزِّعَ « : خُفِّفَ عنها الفَزَع ، وفُرِّغَ : فُرِّغَ عنها الفزع ، وكل ما في القرآن من تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقصان ، فعلى هذه السبيل .))[٢٥]

ثم يبين الموقف من القراءة بجميع هذه الوجوه من عدمه فيقول : ((فإنْ قال قائل : فهل يجوز لنا أنْ نقرأ بجميع هذه الوجوه ؟ قيل له : كل ما كان منها موافقاً لمصحفنا غير خارج عن رسم كتابه جاز لنا أن نقرأ به وليس لنا ذلك فيما خالفه ، لأنّ المتقدمين من الصحابة والتابعين ، قرأوا بلغاتهم ، وجروا على عاداتهم ، وخَلَّوا أنفسهم وسوم طبائعهم ، فكان ذلك جائزًا لهم ، ولقوم من القراء بعدهم مأمونين على التنزيل ، عارفين بالتأويل ، فأمّا نحن معشر المتكلفين، فقد جمعنا الله بحسن اختيار السلف لنا على مصحف هو آخر العرض ، وليس لنا أن نعْدُوَهُ،كما كان لهم أن يفسروه، وليس لنا أن نفسِّره . ولو جاز لنا أن نقرأه بخلاف ما ثبت في مصحفنا ، لجاز أن نكتبه على الاختلاف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير، وهناك يقع ما كرهه لنا الأئمة الموفقون ، رحمة الله عليهم))[٢٦]

ويذكرنا حرص إبن قتيبة على عدم تغيير رسم المصحف بقول أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه حينما كان يقرأ في مسجد الكوفة ببعض القراءات ، وسأله أحد السامعين أن يثبت ما قرأه في المصحف ‘ فقال : القرآن لا يُهاج أي : لا يُغَيّر ، ولا بدَّ من أن حكم أمير المؤمنين قد بلغ إبن قتيبة ، وبنى عليه موقفه . وعلى هذا كان موقف الشيعة عبر العصور بالقراءة والتعبّد بالقراءات التي كانت معروفة على عهد المعصومين ، ومن المعروف أن آخرهم هو التاسع من ولد الإمام الحسين صلوات الله عليه الذي ذكره النبي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما ذكر وأخبر أصحابه بأن الأئمة بعده : علي والحسن والحسين والتسعة من ولد الحسين ، ثم قال : تاسعهم قائمهم ، وبذلك يمتدّ زمن القراءات الى عهد غيبة الإمام المهدي الكبرى سنة ٣٢٩ للهجرة .

واتخذت سُنة النبي الكريم في تنظيم جلوس أصحابه لأخذ تعاليم الإسلام سبيلا، وازدهرت حلقات الدرس سبيلا للتعليم وتطوّرت الى التخصص واستقلت دراسة علوم اللغة عن سواها من مثل الفقه وأصوله والكلام ، والقراءات ، والحديث والتفسير .

وقد كثرت حلقات الدرس اللغوي حتى زاحمت حلقات العلوم الأخرى ، وهو ما يفسر قول إبن سيرين :

((لقد بغَضَ إلينا هؤلاء المسجد ، وكانت حلقته إلى جانب حلقة إبن أبي اسحق الحضرمي))[٢٧] .

والنص القرآني يمثل متنا لغويا صادقا سالما من الانتحال والتحريف ، وقد حفظ متواترا وتؤخذ ألفاظه عن حفاظهِ ، ويعرفه الأصوليون بأنه : ((اللفظ المنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، المنقول عنه بالتواتر ، المتعبد بتلاوته))[٢٨]

ولم يشهد تاريخ الإنسانية كتابا عُنِيَتْ به أمة من الأمم كما عنيت الأمة الإسلامية بكتابها المقدس القرآن الكريم ، فهو كتاب العربية الأول ، فضلاً عن كونه كتاب هداية وتشريع ، وهو كتاب حياة يتجدّد النظر فيه بتجدّد الحياة لاستخلاص الحلول لمعضلاتها ، وهذا يفسر لك ما ألّفه علماء الأمة من موسوعات معرفية في ظلال النص القرآني هي كتب التفسير التي ألّفها العلماء عبر القرون . فأول المفسرين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصدر المفسرين بعده أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه وصلواته وسلامه عليه .

قال إبن عطية : ((وكان جلّة من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن وهم أبقوا على المسلمين في ذلك ، فأمّا صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب))[٢٩]

وهذه الموسوعات التفسيرية عنيت عناية خاصة بعلوم العربية ودراستها من خلال دراسة النص القرآني . فالمفسّر وهو يعنى بالنص القرآني على سبيل محاولة الكشف عن مراد الله في ذلك النص يدرس العلاقات اللغوية فيه ويبحث في الدلالة النحوية والدلالة الصوتية والصرفية ، ودلالة الألفاظ، والقرائن الدلالية الحالية والمقالية ، وبكلمة تراه يصبّ عنايته على مستويات اللغة كافة . فضلا عن دلالة السياق ، وملاحظة إعجاز القرآن بنظمه وتألفيه .

فتراكم المعارف اللغوية عبر القرون في ظلال النص القرآني لم يكن إلاّ لحاجة المسلم إلى هذه المعارف حتى يفهم النص القرآني ويصل إلى إدراك أسرار إعجازه اللغوي .

وقد اتجه نحو الكوفة الى اعتماد منهج دراسة اللغة من خلال دراسة النص القرآني وتفسيره وخير شاهد ينطق بذلك كتب معاني القرآن للكسائي والفرّاء ، وما بني عليها من مؤلفات اتسعت مع الزمن .

والدارس يلاحظ أن نحو الكوفيين يطالعك في كل موسوعة من موسوعات التفسير الى يومنا هذا ، مع عناية خاصة بالقراءات القرآنية والاحتجاج لها ، وتخريج اللغة التي جاءت على وفقها معزوّة لقبائل العرب التي نطقت بها .

فالدرس القرآني اللغوي درس شامل يعلِّم الدارس علوم العربية كافة من خلال نص القرآن .

وبالدارس للعربية اليوم حاجة الى هذا النحو من الدرس الذي ينمّي المعرفة اللغوية لديه من خلال الأداء التعبيري الناجم عن تلاوة النص القرآني ، واستجلاء مواطن الجمال فيه والإفادة من الفسحة الفكرية ومتعتها التي يعطيها ذلك النص .

وللبحث أن يقف عند دراسة النص القرآني ومناهج علم اللغة الحديث ، إذ تعنى هذه المناهج بدراسة اللغة لذاتها ، وتطبيق مناهج العلوم على تلك الدراسة، والسعي الى أن يدرس النص اللغوي من أفواه الناطقين به .

أي دراسة اللحن الذي تلوكه ألسن العامة حين تستعمل هذه المناهج لدراسة اللغة العربية.

ومن الملاحظ انّ هذه الدراسات جميعاً ، وبمختلف اتجاهات مناهجها لم تقف عند النص القرآني من خلال تلاوته وما تمثّله من واقع لغوي صحيح ونقي بالنسبة للعربية . واهتم الدارسون من المستشرقين بتأريخ هذا النص على أساس بعض المتون المكتوبة، والتي لا تشكّل واقعاً متكاملاً للنص القرآني ، وطريقة نقله عبر الأجيال . فهو نص تُتلقف الفاظه عن حفّاظه

ويأخذ من المشايخ تلاوة وحفظاً ودرساً .

وقد نطق أهل القرآن به مضبوطاً معرباً قبل الاهتداء الى رموز هذا النطق المكتوبة في المصحف، التي بدأت بنقط المصحف الذي قام به أبو الأسود الدؤلي ت(٦٩هـ) .

ثم اهتدى عبقري البصرة الخليل بن احمد الفراهيدي ت(١٧٥هـ) الى حركات الإعراب على حروف المصحف ، وهي الحروف الصغيرة التي ترسم فوق الحرف وأسفله ، وعلامات الوقف والتنوين وما إلى ذلك من رموز الأداء الصوتي .

فالنص القرآني حُفِظَ ونُطِقَ معرباً قبل أنْ يُرْسَمَ بالمصحف على تلك الصورة .

وكان يُنْقَلُ إلى الأجيال من خلال حلقات الدرس في المساجد التي تعلِّم الدارسين تلاوة القرآن على وجوه قراءاته كافة . والمعروف أن مدار اختلاف القراءات في النحو حركات الإعراب ، ووجود القراءات بوجوه نحوية تمثّل الرفع والنصب والجر والسكون أكبر دليل على أن النص القرآني نزل معرباً .

وإنّ دراسة المستشرقين لتاريخه لم تُحِطْ بهذا النَّقْل المُعْتَمِد على الحفظ لنَصِّهِ ، وإنّما اعتمدوا على المُدَوَّن وهو متأخِّر عن نزول القرآن وحفظ أهل البيت والصحابه له ، ومن ثم التابعين وتابعيهم ، إلى ان اهتدى الخليل بن أحمد الى رسم الحركات على المصحف .

ولكننا نستفيد من مناهج البحث اللغوي التي اقيمت على اللغات الأوربية التي كانت تتطوّر على ألسنة الناطقين بها كما ألمحنا ، فمن الممكن الإفادة من المنهج الأسلوبي الذي يدرس مستويات اللغة الأربعة: الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي ، وهو عين ما انتهجه المفسرون من منهج ، وقد طبَّقْنا هذا المنهج وأُنْجِزَتْ عشرات الرسائل والأطاريح في الدراسات العليا التي تدرس الظاهرة اللغوية القرآنية على وفق مستويات اللغة الأربعة .

لقد سعى بعض المستشرقين إلى التعامل مع القرآن الكريم على أنه كتاب بشري ، ومن مناهجهم ما يفترض موت المؤلف كالمنهج البنيوي وهو لا يصلح لدراسة النص القرآني لأن القرآن تنزيل وتأويل ، فالذي يدرس نصه لابد له من دراسة التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وآله ، وأهل بيته ، وأصحابه ودراسة أسباب النزول والقرائن الحافَّة بالنص جميعاً ، فضلاً عن معرفة علوم القرآن ودلالة ألفاظ العربية.

والسياق التأريخي لنشأة علوم العربية يختلف عن سياق نشأة علوم اللغات الأوربية وهي متأخرة عن علوم العربية ، غير أن علوم العربية سابقة عليها في اتِّباع المنهج المتمثّل بأصول النحو ، وقواعد سماع اللغة ، وطرق القياس على المسموع .

ولنا أن نشير الى مسألة بالغة الأهمية قبل أن نختم هذا البحث تتعلّق بمنهج دراسة علوم العربية . فقد توصلتُ من خلال خبرتي في تدريس علوم العربية الى أنّ أفضل منهج لدراستها ، ونقلها الى الأجيال هو المنهج المنطلق من النص القرآني ، وهذا المنهج كان وراء انتشار العربية في أرجاء المعمورة في عصورها الزاهرة .

يُلْتَمَس النص القرآني في دراسة أبواب النحو من أولها الى آخرها . مع استحضار شواهد العربية من كتاب سيبويه وكتب معاني القرآن وإعرابه ،لأن بعض مفردات أو جزئيات الدرس النحوي لم ترد في القرآن الكريم .

وتدرّس هذه الشواهد القرآنية وسواها على أساس مستويات اللغة كافة : المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي مع التركيز على المستوى محطّ العناية والدراسة في ضوء مفردات المنهج المرسوم للمرحلة الدراسية ومقتضياته .

فالدرس اللغوي المؤدي الى نتائج حسنة لابد من أن يكون شاملاً مع الحرص على الأداء اللغوي وملاحظة الارتقاء به لدى الدارسين ، ومثلما بدأ الدرس اللغوي

قرآنياً يجب أن يعود قرآنياً لمعالجة الضعف والوهن لدى دارسي العربية في عصرنا .

حينما بدأت أفكر في استحداث كلية للدراسات القرآنية ، وتمكنت بتوفيق الله من وضع مناهجها ، وشاء الله في علاه أن تحصل الموافقات الرسمية على استحداثها عام ٢٠٠٨ م في جامعة بابل ، كان الدافع خدمة القرآن الكريم ، وإحياء منهج دراسة علوم اللغة في ظلال النص القرآني ، وهذا يمثل عودةً الى المنبع الأصيل ، والبداية الصحيحة لتحصيل علوم العربية وانتشارها . وإذا كان بعض الدارسين يرى عزل دراسة نحو القرآن عن تدريس العربية وعلومها كافة، ومنهم من رأى في ذلك ضرباً من التيسير ، ومنهم من تصوّر أنه يخدم القرآن إذا عزل تدريس نحو القرآن عمّا يسمّيه نحو العربية ، فإن ذلك من الخطأ في المنهج ، ومن الانحراف عن السبيل القويم في تدريس علوم العربية ونشر الوعي بها ، لأن هذه العلوم لم تنشأ إلاّ لخدمة كتاب العربية الأول القرآن حتى إن كتاب سيبويه تضمّن أولى محاولات دراسة النص القرآني دراسة لغوية .

إنّ النظر الى النحو العربي على أساس تقسيمي يبعد نحو القرآن عن دراسة نحو العربية ، مع أنني أرى إجحافاً للعربية والقرآن في هذا التقسيم ، يقود الى جعل القرآن كتاباً مهجورا مع تقادم الزمان على الدرس والدارسين .

لقد تحاورت مع أخي العلامة المرحوم د. نعمة رحيم العزاوي حينما تبنّى هذه الدعوة الى تقسيم النحو الى أنحاء ومنها نحو القرآن ومناطه البحث في نص القرآن عمّا يخالف القواعد النحوية البصرية ، وقلت له ، رحمه الله ، إنّ ما خالف القواعد البصرية في النص القرآني وافق القواعد الكوفية ، والحق أنّ النحو الكوفي أقام منهجه على الانطلاق من النص القرآني ، والتماس نظير أسلوب التعبير القرآني من نص القرآن اولاً ومن الشعر وكلام العرب ثانياً ، لذلك هو والنحو البصري يتكاملان في خدمة القرآن من خلال إقامة علوم العربية وبناء قواعدها الكلية . لذلك فنحو القرآن هو نحو العربية ونحو العربية هو نحو القرآن لا يفترقان .

الخاتمة

لاحظ البحث ضرورة نشر الوعي اللغوي والعناية باللغة العربية وسلامتها ، لانّ ذلك هو سبيل العناية بالقرآن الكريم ، للارتباط الذي بينهما ، فلولا القرآن لما بقيت العربية ، ولولا العربية لاستعجم القرآن على اهله نصاً وفهماً .

ولاحظ البحث كذلك انّ الدول الإسلامية التي تبحث عن وحدتها عليها انْ تعنى بلغة كتابها المقدس وتراثها الإسلامي اللغة العربية ، وانْ تغلب العناية بها على العناية باللغات المحلية . ونبّه البحث على ان الدراسات الاستشراقية للنص القرآني على انّه كتاب بشري ، وهي لم تستكمل أدواتها الصحيحة لأنّ مناهجها قامت على اللغات الأوربية ولم تعن بواقع العربية النقي وهو الذي يمثّله القرآن المتلوّ والمرتل، واتجهت الى دراسة واقع الخطأ في العربية واللحن الذي قامت علوم العربية بمهمة تصحيحه ذلك هو اللهجات العامية في البلدان العربية . فوقعت هذه المناهج بالقصور الناجم عن عدم مراعاة السياق المعرفي للعربية وعلومها وكذلك السياق التاريخي ، ولا ينفعنا في هذه المناهج سوى الأسلوبية التي تعنى بدراسة مستويات اللغة الأربعة : الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي . وقد سبق إلى ذلك علماء الأمة من المفسرين وشراح دواوين الشعر وطبقوا هذا المنهج في مؤلفاتهم ودراساتهم قبل قرون على نشأته عند الأوربيين .

ونبّه البحث كذلك الى أهمية إعادة منهج دراسة اللغة من خلال النص القرآني والتوسع في ذلك لأنّه المنهج الصحيح الذي انتشرت من خلاله اللغة العربية وألفّ بها مئات بل آلاف علماء المسلمين من

غير العرب .

ونبّه البحث كذلك الى خطأ منهج تقسيم دراسة النحو العربي الى أنحاء متعدّدة ، وافتراض التفرقة بين نحو القرآن ونحو العربية ، لأنّ ذلك يبعد النص القرآني عن أنْ يدرّس في مراحل تدريس العربية كافة ، ويقصر تدريسه على مرحلة أو مرحلتين من مراحل الدراسة الجامعية المتخصّصة ، بينما الحاجة تقتضي تدريس علوم العربية من خلال النص القرآني ، في المراحل الدراسية كافة ، كما كان منذ تأسيس علوم العربية بدافع الحفاظ على صحة التعبد بالقرآن تلاوةً ومفاهيم ، فنحو القرآن هو نحو العربية ، ونحو العربية هو نحو القرآن ، وما خالف بعض قواعد البصريين من نصه فإنه يوافق قواعد الكوفيين ، وهكذا يتكامل النحو العربي ويتوحّد في دراسة نص القرآن .

والحمد لله أولاً وآخراً

الهوامش

١- مقاييس اللغة ٤ / ٢٩٩ـ ٣٠٠

٢- راجع كتابه : مذاهب التفسير الإسلامي ترجمة عبد الحليم النجار طبع مصر.
وينظر رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم ٢٩

٣- النقط: ١ / ١٢٨

٤- المصدر نفسه والصفحة نفسها

٥- أدب الكاتب ٩ . وأراد بالصدر الفعل ، وهي تسمية الكوفيين .

٦- دلائل الاعجاز ٢٨ .

٧- البرهان الكاشف عن أعجاز القرآن ٤٤

٨- الكوكب الدري فيما يتخرج على الاصول النحوية من الفروع الفقهية ١٦٩ .
ومن أمثلة ذلك الموسوعات الكبرى ، التي حوتها كتب التفسير ومهّدت لها كتب إعراب القرآن ومعانيه من مثل : معاني القرآن للكسائي ، ومعاني القرآن للفراء ، ومعاني القرآن للأخفش ، ومجاز القرآن ، لأبي عبيدة ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ، وأعراب الفرآن للنحاس . وتفسير الطبري ، وتفسير الطوسي ، وتفسير الزمخشري ، وتفسير الطبرسي ، وسوى ذلك من عشرات الموسوعات التفسيرية التي تنتج كل قرن من حياة الامة الاسلامية الى يومنا ها إذ شهد القرن الماضي (العشرون) تأليف أكثر من ثلاثين موسوعة وهذه الموسوعات كلها تُعنى باللغة وعلومها فضلا عن المفاهيم القرآنية .

٩- درس اللغة الموحدة من خلال الشعر الجاهلي د. هاشم الطعان .

١٠- ينظر في ذلك العمدة ، لإبن رشيق : ٢٠/١ .

١١- ينظر الصاحبي في فقه اللغة ، لإبن فارس :٣٧ـ ٤٠ .

١٢- ينظر : المصدر نفسه : ١٣ـ ١٤ .

١٣- من مثل : ماورد في القرآن العظيم من لغات القبائل ، أبو عبيد القاسم بن سلام على هامش تفسير القرآن العظيم ، للجلالين ، المحلي والسيوطي . دار إحياء الكتب العربية واللغات في القرآن ، عبد الله بن الحسين بن حسنون ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط الثانية ١٩٧٢م . وكتاب فيه لغات القرآن ، للفراء وسواها .

١٤- من هذه الدراسات التي عني بها المستشرقون ، والعراقيون أمثال طه باقر ، ود. سامي سعيد الأحمد ، ود. نائل حنون ، وطلبته.

١٥- العربية : ٥٩ .

١٦- البيان والتبيين ١ / ٦٩

١٧- العربية : ٥٩ .

١٨- ينظر : أصول الكافي :٦٤٢ .

١٩- تفسير القرطبي ١ / ٤٠

٢٠- تأويل مشكل القرآن ٣٧

٢١- المصدر نفسه ٣٧ـ٣٨

٢٢- المصدر نفسه والصفحة نفسها .
٢٣- المصدر نفسه ٣٣
٢٤- تأويل مشكل القرآن ٤٠ ـ ٤١
٢٥- المصدر نفسه ٤١ ـ ٤٢
٢٦- المصدر نفسه : ٤٣
٢٧- إنباه الرواة ، للقفطي ٢/ ١٠٦ ـ ١٠٧ وينظر المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية ٣٨.
٢٨- مناهل العرفان في علوم القرآن ، للزقاني : ١/ ٢٢ .
٢٩- تفسير القرطبي ١/ ٤٨ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١- الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل ، واللغة الموحدة ، د. هاشم الطعان ، وزارة الثقافة والفنون .

٢- أدب الكاتب لإبن قتيبة (ت٢٧٦هـ) ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، ط٤، ١٩٦٣م ـ ١٣٨٢هـ .

٣- أصول الكافي ، الكليني (ت٣٢٨هـ) ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٥م

٤- إعراب القرآن ، للنحاس (ت٣٣٨هـ) ، تح : د. زهير زاهد ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٧م .

٥- أنباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطي ، تح : محمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠م .

٦- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، للزملكاني (ت٦٥١هـ) ، تح : د. خديجة الحديثي ، ود. احمد مطلوب ، مطبعة العاني ببغداد ، ط١ ، ١٩٧٤م ـ ١٣٩٤هـ

٧- تأويل مشكل القرآن ، إبن قتيبة (ت ٢٧٦ ه) تحقيق السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٣

٨- تفسير الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، تح: عادل عبد الموجود ، ود. علي معوض ، الرياض ، ط١ ، ١٩٩٨م .

٩- تفسير الطبرسي (ت٥٤٨هـ) ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م .

١٠- تفسير الطبري (ت٣١٠هـ) تح : محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر.

١١- تفسير الطوسي (ت٤٦٠هـ) مطبعة ذوي القربى ، طهران ، ط١ .

١٢- تفسير القرطبي (ت٦٧١هـ) ، مكتبة الصفا ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٥م ـ ١٤٢٥هـ ، خرج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد و محمد عيادي بن عبد الحليم .

١٣- دلائل الإعجاز ، للجرجاني (ت٤٧٤هـ) تح : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

١٤- رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم ، الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، طبع مكتبة وهبة د ـ ت ـ

١٥- الصاحبي في فقه اللغة ، لإبن فارس (ت٣٩٥هـ) ، تح : الشيخ أحمد صقر ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٥م .

١٦- العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، يوهان فك ، ترجمة : د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٨٠ م .

١٧- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لإبن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٢م .

١٨- ما ورد في القرآن العظيم من لغات القبائل ، ، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) على هامش تفسير الجلالين ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت ، لبنان ـــ معاني القرآن ، للأخفش تح : عبد الأمير الورد ، ط١ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٥م ـ ١٤٠٥هـ .

١٩- مذاهب التفسير الإسلامي ، جولدتسهير ، ترجمة : د. عبد الحليم النجار الناشر : مكتبة الخانجي بمصر ، ومكتبة المثنى ببغداد .
٢٠- معاني القرآن ، للفراء (ت٢٠٧هـ) ، تح : محمد علي النجار ، واحمد يوسف نجاتي ، ط٢ ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٠م .
٢١- معاني القرآن ، للكسائي (ت٨٩٢هـ) ، إعداد : د. عيسى شحاته ، دار قباء ، للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٨م .
٢٢- كتاب فيه لغات القرآن ، يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ) صححه وضبطه جابر بن عبد الله السريع . أهداه المحقق الى المكتبة الشاملة لنشره عام ١٤٣٥ هـ.
٢٣- اللغات في القرآن ، لإبن حسنون ، تح : صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٢م .
٢٤- المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية ، أ.د رحيم جبر أحمد الحسناوي ، دار اسامة الأردن ، ط١، ١٩٩٩م .
٢٥- مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، تح : بديع السيد اللحام ، دار قتيبة ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٩٨٨م .
٢٦- النقط ، عثمان بن سعيد بن عثمان (أبو عمرو الداني ت ٤٤٤ هـ) تحقيق محمد الصادق قمحاوي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة .

بسم الله الرحمن الرحيم